



دور التصوف في انحطاط المجتمعات الإسلامية

يوسف سميرين - القدس الشريف

الضرر بالعلوم كافة^١.

وما قالاه يمكن رصد شواهد وأمثلته في التاريخ، ومن ذلك موقف المتصوفة من الشيخ الذي ينصبونه زعيماً عليهم، قال الشعراني (٩٧٣هـ) في شرح منزلته بينهم: «واعلم يا أخي أن الفقير ما دام تحت رعاية شيخه ملاحظاً له، فهو محفوظ من الشيطان، لارتباط ذلك الفقير بشيخه، وارتباط شيخه بالنبي ﷺ، وارتباط النبي بحضرة الله عز وجل، فلا يجذ الشيطان له مسلماً يدخل منه إلى قلب الفقير»^٢، وغير خفي تذكيرهم الدائم بما «قال المشايخ في أدب المريـد: ينبغي أن يكون بين يديه كالميت بين

أعد د. إسماعيل راجي الفاروقي، ود. لويس لمياء الفاروقي كتاباً صدر بست لغات، ثم ترجم إلى العربية وطبع في مكتبة العبيكان، بعنوان (أطلس الحضارة الإسلامية) ومما تعرضا له التصوف ودوره في انحدار المجتمعات الإسلامية، ومما سجله في ذلك:

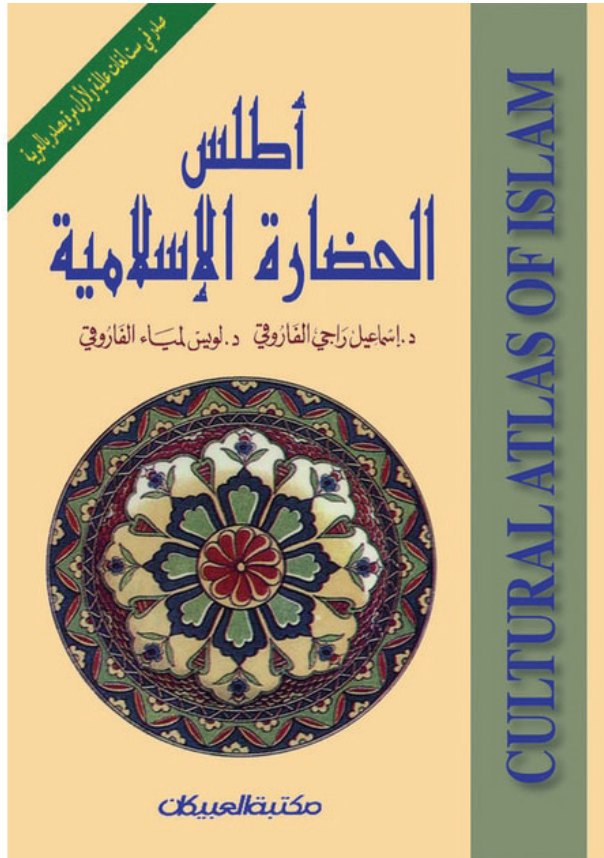
١- حل الكشف أو الإشراق الرُّوحي محل المعرفة، فهجر العالم الإسلامي التزامه بالمعرفة العقلية العلمية ومتابعتها لصالح التجربة الصوفية، وهجر الموازنة النقدية من أجل بيانات الشيخ أو الزعيم الصوفي الغامضة المبهمـة السلطوية، وصارت الغلبة للميول الذاتية الغامضة بما ألحق

١- أطلس الحضارة الإسلامية، إسماعيل راجي الفاروقي، لويس لمياء الفاروقي، مكتبة العبيكان، ص ٤٣٧.

٢- تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا، عبد الوهاب الشعراني، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكرز للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠١٢، ص ٨٣.

مع مرور الزمن امتزجت الرياضيات مع غيبيات الأرقام، والفلك مع التنجيم، وهندسة الطبيعة عموماً مع الشعوذة.

ومن أمثلة ذلك ما نسب إلى ابن برّجان (٥٣٦هـ) بأنه تنبأ بفتح القدس بالسنة، إذ «وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي -يعني ابن برّجان- في أول سورة الزّوم أخبار عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»^{٣٧}، وكان ذلك بجعله الأمر حسابات ينسبها إلى الآيات، وهناك شكّ معقول بوقوع التلاعب



والتّعديل بتفسيره كما سجّله ابن خلّكان (٦٨١هـ) فقال: «لم أزل أطلب تفسير ابن برّجان حتى وجدته على هذه الصّورة، لكنّ كان هذا الفصل مكتوباً في الحاشية بخط غير الأصل، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به»^{٣٨}، ووصف السّخاوي (٩٠٢هـ) صنيع التنبؤ المزعوم بقوله: «بَنَى الْأَمْرَ عَلَى التَّارِيخِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُنْجَمُونَ»^{٣٩}.

٣٧- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٤٢٠هـ. ٥٩٢/١٦.
٣٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلّكان، دار صادر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٧١م، ٢٣٠/٤.
٣٩- البداية والنهاية، ابن كثير، ٥٩٢/١٦.

يدي المغسّل، فالميت هل يعترض على الغسّال أن يغسل عضواً من أعضائه، أم يحركه أو يتصرف فيه بما يرى من المصلحة؟»^{٤٠}.

وسجّل الشّعراني مثلاً على الوصايا الدّاتية التي تقترب من الجبر، كوصيّة عليّ الخوّاص الذي كان أمياً لا يُعرف إلا بتعظيم المتصوّفة له، إذ يوصي بألا يُمنح الفقراء المال! بحجّة «أنّ عقوبة ذلك ربما ترجع عليه، لمعارضتكم للأقدار الإلهية لغير طريق شرعي»^{٤١}، أو بوصية المتبولي فقال: «كان سيدي إبراهيم المتبولي، رضي الله عنه، يقول لأصحابه: من أدرك منكم النّصف الثّاني من القرن العاشر فلا يشدّد في إزالة منكرات الولاة، لأنّ في ذلك الزّمان تترادف علامات السّاعة التي أخبر عنها الشّارع، ومن شدّد في منع وقوعها أصلاً فكأنه ساعٍ في خلف ما وعد به الشّارع، ولا يخفى ما فيه!»^{٤٢}، وهو ما يندرج تحت وصف مؤلفي (الأطلس) بأنّه «الرّضا السّلبي بما يحدث»^{٤٣}، أو بما يصفه مالك بن نبي بقوله: «الضّوفي يخرج عن النظام الطّبيعي للحياة، ويتخلّص من مسؤولياتها عن طريق الأوراد والسّبحة، كما يتخلّص المنتحر العادي عن مسؤولياته بواسطة الخنجر، فالضّوفي ينتحر بوسائل الرّوح»^{٤٤}.

وبقيت كلمات المتصوّفة تدور بينهم كأنها دُرر وفوائد حتى في الجوانب الطّبية ومن أمثلة ذلك ما سجّله ميارة المالكي (١٠٧٢هـ) في كتابه الموسوم بالدر الثمين فقال: «ذكر الشّيخ زُرّوق في (النّصيحة): إنّ البول في الماء الراكد يورث النّسيان، وكذا أكل سور الفأر والثّفاح الحامض وكنس البيت بالخرقة، وأكل الكزبرة الخضراء وقراءة كتابة القبور، والنّظر في المصلوب والمشّي بين الجميلين المقطورين أي: المربوطين، وطرح القمل على الطّريق وإدمان النّظر إلى البحر، قال ذكر ذلك الشّيخ أبو طالب المكي»^{٤٥}، فأحال إلى شيخين صوفيّين (زُرّوق، وأبي طالب المكي) كأنه بذلك أقام برهاناً، ووصلت هذه الطّريقة ذروتها مع ما سجّله المؤلّفان فقالا:

٣ - وصية زين الدين الخوافي، مخطوط، مكتبة آيا صوفيا [٢١٥٥]، ق ٣٧، باختصار يسير.
٤ - تطهير أهل الزوايا، ص ٣٧.
٥ - لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحديث بنعمة الله على الإطلاق، عبد الوهاب الشّعراني، اعتنى به: أحمد عزو عناية، دار الثّقوى، دمشق-سورية، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م، ص ١٨٩.
٦ - أطلس الحضارة الإسلامية، ص ٤٣٨.
٧ - تأملات، مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر- دمشق، ٢٠٠٢م، ص ٤٤، باختصار يسير.
٨ - الدر الثمين والموارد المعين، ميارة بن أحمد المالكي، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص ١٤٠.

ومما سجّله المؤلفان:

فضلاً عن تشويهِه للمعتقد الإسلامي، فذلك الغلو في تمجيد الميت هو في الواقع تمجيد لشيخ الطريقة الحي الذي يزيّن ذلك لأتباعه، ليزيد من سلطته عليهم، بما أنه حلقة في سلسلة هرم تلك السلطة التي تدّعي أنها ستوصل السالك إلى الله، فأضحى بذلك شيخ الطريقة تابعاً لمجد مشايخه، كما قيل: «مجدُ شيخه أصبح مجداً شخصياً له»^(١٧)، وبهذا يرفع من رتبة نفسه كلّما بالغ في نسبة الكرامات المزعومة للأموات من مشايخه!

وينتهي المؤلفان إلى القول:

«لقد أفسدت هذه الظواهر صحّة المجتمع الإسلامي طوال خمسة قرون منذ سقوط بغداد على أيدي التتر عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م»^(١٨)، ويمكن معرفة حجم تأثير تراكم الخطاب الصوفي منذ ذلك الحين، لا سيّما بعد أن تبنى كثير منهم أطروحات ابن عربي الحاتمي (٦٣٨هـ) ورموزه وأقواله في وحدة الوجود، ولا ينادونه إلا بالشيخ الأكبر، فقد كانت تلك الأطروحات بمجملها لا تتوقف على التأثير في الانحطاط الآني فحسب، بل تشمل المؤجل منه، في مقابل نشاط حركة الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر. وحتى مع تشكّل حركات تأثرت بالتصوّف وقاومت الاستعمار الحديث، إلا أنه بقيت ترتكب الأخطاء الاستراتيجية السياسية الفادحة، لمشكلات تتعلق بالتركيبة الصوفية الفكرية والاجتماعية والمعرفية، وتجتمع في تلك الأخطاء رغم وجود اختلاف وفوارق بين الطرق الصوفية، فبعضها لا يصل إلى القول بوحدة الوجود مثلاً، وينادي بوحدة الشهود، لكن ذلك لا يعفيها من المآخذ السابقة في تشكيل أرضية أضعفت المجتمعات، وساهمت في انحطاطها، وبقيت تركتها عاجزة عن تشكيل نُدّ حقيقي في مقابل الحداثة الأوربية، وكثير من تلك الحركات بعد أن قدّمت تضحيات جمة في مرحلة مقاومة الاستعمار اعتزلت إلى الزوايا في المجتمعات بعد الاستقلال، أو شكّلت أداة لتبرير السلطة الجديدة القائمة لا لنقدها أو تطويرها، وكان التصوّف ذا مساهمة جوهرية في رسم هذا المسلك.

٢- اعتماد المتصوّفة على ذكر ما وُصف بأنه خوارق على يد الشيخ، وبذلك «تحتطمت في عقل المسلم العلاقة الطبيعية بين السبب والنتيجة، بين الوسيلة والغاية، وحل محلّ ذلك علاقة المسلم بالشيخ الصوفي القادر على اجتراح الكرامات من أجله»^(١٩)، ويمكن تصوّر حال علم الأحياء مثلاً لو التفت إلى ما قاله الشعرازي: «سيدي علي الخواص البرلسي، رحمه الله تعالى، من كراماته، رضي الله عنه، أنه كان يسمى بين الأولياء نسبة لكونه يعرف نسب بني آدم وجميع الحيوانات إلى آبائها الأول التي لم يتقدمها أب!»^(٢٠)، بل تحوّل الأمر إلى هوس في نسبة الكرامات إلى مشايخهم حتى فيما لا تعلّق له بخرق العادات، ومن ذلك ما قيل في ترجمة «محمد علي الطعمي الصوفي، ومن عظيم كراماته، رضي الله عنه، أنه ذهب ذات مرة إلى قرية العطيّات بأبنوب أسيوط فخرج لاستقباله أغلب أهل القرية حتى نصارى القرية»^(٢١)!

ومما ساهم فيه التصوّف:

٣- «الطاعة أو الانصياع لشيخ الطريقة الصوفية بشكل مطلق كامل. لا يقبل سؤالاً ولا جدالاً، وقد حلّت هذه الفكرة محلّ التوحيد الذي لا يعترف بمولى سوى الربّ الواحد»^(٢٢)، وما قاله لا يعدّ مبالغة متى ما قورن بما نسبته المتصوّفة أنفسهم إلى مشايخهم، ومن ذلك ما قاله الشعرازي: «وقع للشيخ محمد الحنفي الشاذلي، رضي الله عنه، أنه مشى يوماً على بحر النيل ومعه تلميذه، وكان قد قال لتلميذه: قل في كلّ خطوة: يا حنفي، فمشى معه إلى قريب الساحل، فقال التلميذ في نفسه: الله أعظم من الحنفي، فقال: يا الله، فغرق! فالتفت إليه الشيخ وقال: يا ولدي إنك لا تعرفه، فلو عرفته ما غرقت في البحر»^(٢٣)! فكان لا بدّ أن ينتظم ذلك التلميذ في سلسلة هرمية من السلطة التي شكّل قطاعها الأوسع مجموعة من المشايخ الأموات، يدعّوهم ويستغيث بهم من دون الله!

ولم يكن ذلك منفصلاً عن توزيع السلطة في المجتمع

١٢ - أطلس الحضارة الإسلامية، ص ٤٣٧.

١٣ - لطائف المنن والأخلاق، ص ٥٥.

١٤ - النور الأبهري في طبقات شيوخ الجامع الأزهر، محيي الدين الطعمي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ١١٩، باختصار يسير.

١٥ - أطلس الحضارة الإسلامية، ص ٤٣٨.

١٦ - الفتح في تأويل ما صدر عن الكُمل من الشطح، عبد الوهاب الشعرازي، عن مخطوط أوقاف بغداد برقم ٧٠٧١، ومخطوط دار المخطوطات رقم ٢٣٤١، مطبوع مع كتاب أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق وتقديم: قاسم محمد عباس، الناشر: المدى، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص ١٤٠.

١٧ - الإخوة كارامازوف، دوستوفسكي، ترجمة: سامي الدروبي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، الطبعة الأولى: ٢٠١٠م، ص ٧٨١.

١٨ - أطلس الحضارة الإسلامية، ص ٤٣٨.